

نفحات القرآن

[323] □ مالك الملك قال المفسرون : إن الآية الأولى نزلت بعد فتح مكة ، أو حينما كان النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) مشغولا بحفر الخندق قبيل معركة الأحزاب حيث بشر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد إعتبر المنافقون ذلك تخيُّلات وتكهّنات وتشبُّثاً بالمحالات(1). وفي هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأنذرت الجهلاء بأن □ مالك كلّ البلدان حيث قالت : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) وليس الحكومات فقط وليس العزّة والذلّة بل (بِرِيدِكَ الْخَيْرُ انْزَلَكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (2). وقدرة □ عزّ وجلّ على كلّ شيء هي - في الحقيقة - دليل حاكميته على الأرض والسماء . ومن الواضح أن لِمَالِكِيَةِ □ بُعداً عاماً وحقيقياً ، في حين ما جاء في المورد الآخر في جملة (تؤتي الملك من تشاء) يكون له بعد جزئي ومجازي . ولا دليل على تحديد مفهوم الآية بفتوحات الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أو عزّة المؤمنين وذلّة اليهود وما شاكل - كما يعتقد بعض المفسرين - بأنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الحكومات وكلّ عزّة وذلّة ، وما قالوه فهو من مصاديقها الواضحة ، والجملة الأخيرة (انْزَلَكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) هي في الواقع بمثابة الدليل على هذه المالكية الإلهية العامّة والمطلقة . وواضح أن المشيئة والإرادة الإلهية التي إستند إليها في هذه الآية لا تعني أن □ يعزّز أو يذلّ أو يعطي الحكومة ويسلبها بدون حساب ، بل أنّّه وضع في عالم الأسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهي مظاهر مشيئة وإرادته .

1 - مجمع البيان : المجلد 2 / ص 427 ، وتفسير الفخر الرازي : المجلد 8 / ص 4 . 2 - قال بعض اللغويين : الخير والإختيار لهما مادّة واحدة ، والحسنات خير لأنّ كلّ إنسان يختارها (التحقيق ، المفردات ، تفسير الميزان في ذيل آية البحث) .